الفصل السابع

الأمهات والبنون فى أدب المهجر

١ – الأمهات

فى مطالعاتى لبعض كتب الأدب الإيطالى وصحفه كثيراً ما استوقفتنى قطع روائع – نثرية وشعرية – من أدب الأمومة ، ومن أدب الطفولة . وأذكر أن أستاذ اللغة الإيطالية أعطانا مرة فى درس المحفوظات قصيدة للشاعر إدموندو دى أميشيس (Edmondo de Amicis) هذه ترجمتها :

« إن الزمان لا يقوى دائماً على محو الجمال
ولا تذبله الدموع والأحزان
فإن لأمّى من العمر ستين عاماً
وكلما ازددت تحديقاً فى وجهها ازدادت فى عينىّ بهاء

* * *

كل حركة ، أو نظرة ، أو ابتسامة ، أو عمل منها
تلامس أعماق قلبى بعذوبة وحلاوة
فليتنى كنت رسّاماً
لأقف حياتى كلها على رسم صورتها

* * *

أتمنى أن أصوّرها حينما تحنى إلىّ وجهها
لكى أقبّل ضفيرتها البيضاء
أو حينما تكون مريضة أو تعبة
وتخفى عنى ألمها بابتسامة حنون

* * *

لو كانت السماء تحقق لى أمنية
لالتمست من الرسام الأوربينى العظيم « رفائيل »
أن يعيرنى ريشته الإلهية
لكى أتوّج بالمجد جبينها البهى

* * *

وددت لو أستطيع أن أستبدل حياة بحياة :
فأهب أمّى شبابى وقوتى
لأرى نفسى شيخاً هرماً
وأراها من تضحيتى فى عنفوان الشباب » .

إن مثل هذه القطع العاطفية الجميلة تجعل النفس تخشع أمام عظمة الأمهات ، وتمتلئ بمعانى الجمال والحنان واللطف والبهجة . ولذلك كثيراً ما بحثت فى الأدب العربى عن مثل هذا الشعر الذى يبعثه حب الأم ، ويوحى به جمال الطفولة وبراءتها . ومن المؤسف أن أذكر أن هاتين الناحيتين ضعيفتا الحظ فى الأدب العربى ، بمقدار ما هما كبيرتا الحظ فى الآداب الأجنبية .

وفى دراساتى للشعر المهجرى بحثت عن حظ الأمهات وحظ الأبناء ، فوقعت على أشياء منه فيها الكثير من الجمال ، والحنان ، واللطف ، والرقة ؛ ولعل أشهر من عنى بشعر الأمومة من شعراء المهجر هو الشاعر القروى رشيد سليم الخورى ، فله فى أمه عدة قصائد ، كلها تعرب عن تعلقه الشديد بأمه ، وتقديسه لها ، وخشوعه العميق أمام مشاعر الأم ورسالتها الشاقة فى الحياة .

من قصائد القروى فى الأم قصيدة طويلة يروى فيها أسطورة ابتدعها خياله فى جلسة له إلى جانب أمه ، أطال فيها التحديق بعينيها وتقاطيع وجهها ، فكأنما جعله ذلك التحديق يتغلغل إلى أعماق نفسها ، فيختبر مشاعر الأمومة المقدسة التى تعتلج فيها . وفى تلك القصيدة يروى أن شاعراً قد مات فحملته الملائكة إلى السماء ، فرقّ له الخالق العظيم وهيأ له مكاناً فى حضن إبراهيم أبى الأنبياء ولكن الشاعر لم يهدأ له بال ولم ترقأ له دمعة . فنقله الله إلى حضنه هو نفسه ، فلم يقنع ولم تهدأ دموعه . فسأله الله عما به فأجابه أنه يتمنى لو نقله الله إلى حضن أمه ،

لأنه أحنى عليه من كل حضن آخر . فتعجب الخالق من هذا الطلب ، وأدهشه أن يرى مخلوقا غريباً يفضّل على أحضانه الإلهية حضن امرأة على الأرض . وصمّم على أن يختبر بنفسه حضن الأم .

ويختم الشاعر قصيدته بالبيت التالى :

وكانت ليلةٌ ، وإذا صبيٌّ صغيرٌ نائمٌ فى حضْن مريمْ

وقد عبّر الشاعر بهذا البيت أروع تعبير عن عقيدة المسيحيين بألوهية المسيح ، كما استطاع بالقصيدة كلها أن يرسم أروع صورة وأجلّها لقداسة الأم وعظم مكانتها . ولكنّ المؤسف جداً أن القصيدة ، على سموّ فكرتها وروعتها ، نثرية ركيكة فى عبارتها ، وليس من نسب بينها وبين الجيّد من شعر القروى .

وقبل أن تنتقل أمه فى عام ١٩٢٤ من لبنان إلى البرازيل ، حيث كان يقيم ، كانت قصائد حنينه تطفح باللهفة إلى رؤيتها بعد غيابه الطويل عنها .

ومن ذلك قصيدة له بعنوان « إلى القمر » ، يناجى فيها القمر قائلاً :

فإن شِمْتَ أمّىَ عند المغيبِ تُوَجِّهُ للبحر عنّى السّؤالا
تؤمّ الموانىَ بعدىَ تبغى بمدْمَعِها – لا بهنّ – اغتسالا
وتنظر عنّىَ تلك الرمال فتبكى وتلثم عنّى الرِّمالا
فقبّلْ بنورِكَ ذاكَ الجبينَ ليزدادَ نورُك منه جَلالا

ويقول فى قصيدة حنين أخرى عنوانها « تحية مغترب » ، ذاكراً أمه وإخوته البعيدين عنه فى أرض الوطن :

سلامٌ إلى حيثُ غادرتُ روحى بلبنان سابحةً هائمه
أحنّ إليه وأطواده تزمجرُ قاعدةً قائمه
إلى إخوةٍ كفراخ القطَا وأُمٍّ على أمرهمْ قائمه
إذا عبس الدهرُ فى وجهها تظلّ لهم أبداً باسمَه
فيا ربّ رفْقاً بتلك الفراخ وأبقِ لهمْ أمّهمْ سالمَه

وفى قصيدة له بعنوان « أمى » يقول :

ولو مُلئَتْ لىَ الجامـاتُ صبْرا ولو جُرِّعتُ حلْوَ العيش مُـرّا

فـفى شفتىَّ ينبـوعٌ عجيبٌ يحوّل لى كؤوس الخلّ خمْرا
فيسكرنى ، وذلك صوتُ أمِّى

ولو هجمتْ على قلبى البَـلايا وهـدّت سورَ آمالى الرزايا
فإنَّ بباب فردوسى مـــلاكاً يسلّ السيفَ فى وجه المنـــايا
فيحرسنى ، وذلك طيف أمِّى

وهذه أبيات من قصيدة أخرى :

عَلَّقتَ فوق سريرى رسمَ وَالدتى تعـويذةً لىَ من أشباح أتْـراحِ
فإن تبدَّى على بلّوره غبَشٌ كما يغشّى دخانٌ وجْهَ مصباحِ
وَكَلْتُ أطرافَ منديلى به فجَلا وشفّ عن باسمٍ كالفجر وضّاحِ
ورحتُ أغمض أجفانى وأفتحُها على رضَى الأمّ إمسائى وإصباحى

وليس هذا كل ما نظمه الرشيد من شعر فى الأم ، فله عدّة قصائد أخرى يذكر فيها أمه ، ويعبّر عن تقديسه العميق لها . ولكنها حين توفيت عام ١٩٥٤ لم يستطع القروى أن يرثيها وحدها ، إذ كانت مأساة فلسطين تملأ أفق نفسه ، فأراد أن يجعل رثاءها رثاء للشعب الذى تشرّد وتعذّب ، فقال :

كفى الميتَ منا أن يحسّ له فقْـدُ أبَعْدَ هلاك الجمْع يفتقدُ الفَرْدُ ؟
أبعدَ فلسطينٍ ينـــاحُ على فتًى وهل بقيتْ فى مقلةٍ دمعةٌ بَعْدُ ؟
بكائى على المليـون أنضبَ أدمعى فما أنا إلاّ النار والحجرُ الصَّلْدُ

ثم يذكر أمّه فى القسم الأخير فيقول :

ألا دمعةٌ من « لاجئ » أستمـــدّها فأبكىَ بالبحر الذى جَزْرُه مـدُّ
وأندب أمًّا لم يجـدْ مثلَ حبّهـــا وحبّى لها ، لا الوالداتُ ولا الولْدُ

ولكن المؤسف أن العاطفة فى هذه القصيدة جاءت فاترة ، خالية من الحرارة العاطفية ، كما جاءت باردة العبارة .

والأم فى الشعر المهجرى رفيقة الحنين إلى الوطن ؛ فشعراء المهجر يحنّون إلى أوطانهم حنيناً كله شوق ولهفة ، وفى حنينهم يتذكرون الأهل والأحباب ، وذكريات الهوى والشباب . وأبرز ما يذكرونه ويحنّون إليه أمهاتهم . ومن ذلك

قول أمين مشرق من قصيدة له فى الحنين ، نظمها إبّان المجاعة الكبرى فى لبنان على عهد جمال السفّاح :

يا نسمةَ الصّبْح لامسيهـــا ... وبَـرّدِى قـلبىَ الحـزينْ
يا نسمـةَ الصّبْح قبّليهـــا ... فى الخدِّ ، عنى ، وفى الجبينْ
أمّـاهُ ! بالله مـا دهـاكِ ... وما دهى إخْـوتى الصّغارْ
هل أوقعتْهُمْ يـدُ الهـلاكِ ... ما بين نارٍ وبين عـارْ ؟
وهل طغَى فيـكمُ الأعادى ... وطـاردُوكم إلى البـوادى
وحْـولَكم خيّمَ السّكـونُ ... وأُغمضتْ فى الدُّجى عُيونُ
ومـرّ فى بالكمْ أمـينُ ؟ ... أمـاه ردّى ، أنا أمينُ !

ولشفيق المعلوف فى شعر الحنين قصيدة ختم بها ديوانه « نداء المجاذيف » وقد قال فى المقطع الأخير منها ، وهو يمنّى النفس بالعودة إلى الوطن :

إذ ذاك آلامى وذكراهـــا ... تطوى على جُرْحى جناحَيْهـا
لأن أمّى حـين ألقاهـــا ... إن طـوّقتنى بذراعَيْهـــا
لقيتُ فى بؤبؤ عينيهـــا ... ألـذّ أيّامى وأحـلاها

ويصف شعور الأم فى شوقها إلى ابنها المغترب ، فى قصيدة من ديوانه « لكل زهرة عبير » ، فيقول :

شراعٌ مدّ فوقَ الموج عنْقـــا ... وراح يـرودُ خلْفَ الأفق أفقـا
يُقل فتى تبذى الشط جهما ... له فأشاحَ عنه الوجه طَلْقا
وغادرَ عند صخر الشطّ أمًّـا ... تـذوبُ إليـه تحناناً وشوقا
فما نضبتْ لمقلتهـــا دمـوعٌ ... كأنَّ لعينهـا فى البحر عرْقا
تُـرى هل آبَ من سفرٍ شراعٌ ... ولم تشبعه تقبيـلاً ونشْقا
وهـل أشفى على التّرْحال إلاَّ ... رأيت فماً على الكتـان ملْقَى
إلى أذن الشراع يبثّ شيئـــاً ... ويعهـد للرياح بما تبثّى

وبهذا المعنى نفسه يقول الشاعر إلياس فرحات من قصيدة له بعنوان « يا أمّى » يرثى بها أمّه :

أنفقت عمرك ترقبين رجوعنـا ... وتجوس كلَّ سفينةٍ عينـاكِ

ما مرّت النسماتُ بى عند الضّحى إلاّ عرفتُ بطيبها رَيّاكِ
والبدرُ لم يَظهرْ لعينى مرّةً إلاّ قرأتُ بوجهه نجواكِ
وهواتفُ الروض الطروبة ماشدَتْ إلا سمعتُ بشدْوها شكواكِ
أشْقَى النساء على الثرى أمٌّ قضَت أيامهـا فى وحـدة النّساكِ
ترنو إلى الأفقِ البعيدِ بمقلةٍ تبغى اخْتراقَ دوامس الأحلاكِ
وتسائلُ الأقمارَ : أين محلّهمْ ومتى يكونُ من الإسار فكاكى؟
ركبوا الخضمَّ إلى النّضار فليتنى ألقيتُ نفسى فيه للأسماكِ
وقضتْ ملوّعة الفؤاد وعينُها تجتالُ بين البـاب والشبّاكِ
أمّاه ! يا فخـرَ البنين ! تحيّة منّا عليك لها شذا ذكراكِ
حسب المهاجر لوعةً أنَّ الأسى يقضى عليه ولا يرى مثواكِ !

وللشاعر شكر الله الجر قصيدة طويلة ذات مائة وثمانية أبيات يرثى بها والدته ؛ وهى من الشعر الذى يتفجر رقة ولوعة وحبًّا ، نقتطف منها الأبيات التالية :

أمّاهُ إنْ غابتْ ملامحُك الرضيّة فى السحابِ
سيظلّ من صلوات أمْسك ما يقينى فى الصعابِ
ويظلّ من أضواء حبّكِ ما يضىء دجَى اغترابى

* * *

ولكم أحسّ بأنَّ قلبك حولَ قلبى خافقُ
وبأنّ طيفَكِ حيث سرْت مـرافقٌ ومعانقُ
متحدّياً حتى الفنـاء فلم تعقْهُ عوائقُ

وللشاعر عقل الجرّ – أخى شكر الله الجرّ – قصيدة رائعة بعنوان « أمى » تفيض حناناً ورقة وجمالاً ، نقتطف منها ما يلى :

ذكرتُ ، ولكن كحلْم الكَرى أموراً تقضّت زمانَ الصِّغَرْ
غـداةَ أدبُّ دبيبَ النّمـال وحولى تدبُّ ظروفُ القدَرْ
أتعتـعُ لا مفْصحاً كلمة فتحسب أمّى كلامى دُرَرْ
وأبكى فيضجرُ بى والـدى وليس يلمّ بأمى الضَّجَـرْ

فتلهب خـــدّىَ من لثْمهـــا وتمسحُ من آدمعى ما انْحَدَرْ

* * *

ويوم مرضتُ فجنّت وراحَتْ تـرودُ الكنـائسَ قبل السَّحَرْ
تـــودّ لـوَانَّ الفـدَى ممكنٌ فتفـدى حيـــاتى بنور البصَرْ
وتخلع ، إن تستطعْ ، عمْـرَها علىّ لآمن بطْشَ القَدَرْ
أئنٌ فتشعرُ فى صـــــدرها كأنَّ أنيـــنىَ وخْـــزُ الإبَرْ

* * *

ودارَ الزّمـــانُ بأحـــــداثه ومـرّ على عِقْدنا فانْتَثَرْ
وجـــرّد أمّى منّى كمـــا تجرّد كفُّ الخريفِ الشجَرْ
ورحتُ أخوضُ غمـارَ الحياة ودون الحيـاةِ زحـــام البشَرْ
فأعـــثر بالمكْرِ والإحتيـــال وأمنَى علـى عِفّتى بالضَّرَرْ
فأيقظَ فى النفس هذا القنوطُ (م) ادّكارىَ أمّى وعهداً عـبَرْ
إذا ما تمنى رجوعَ الشبـــاب أناسٌ ، تمنيتُ عودَ الصِّغَرْ

ولم يقتصر ما قاله المهجريون فى الأمهات على الشعر وحده ، فإن فى نثرهم أيضاً نماذج رائعة من أدب الأمومة ، نختار منها لجبران من « الأجنحة المتكسرة » قوله :

« إن أعذب ما تحدّثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأم » ، وأجمل مناداة هى « يا أمى » . كلمة صغيرة كبيرة ، مملوءة بالأمل والحب والانعطاف ، وكل ما فى القلب البشرى من الرقة والحلاوة والعذوبة .

« الأم هى كل شىء فى هذه الحياة : هى التعزية فى الحزن ، والرجاء فى اليأس ، والقوة فى الضعف . هى ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذى يفقد أمّه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ، ويداً تباركه ، وعيناً تحرسه .

« كل شىء فى الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة : فالشمس هى أم هذه الأرض ترضعها حرارتها ، وتحضنها بنورها ، ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنوّمها على نغمة أمواج البحر ، وترنيمة العصافير والسواقى . وهذه الأرض هى أمّ للأشجار والأزهار ، تلدها وترضعها ثم تفطمها . والأشجار والأزهار تصير بدورها

أمهات حنونات للأثمار الشهية والبذور الحية . وأمّ كل شيء فى الكيان هى الروح الكلية الأزلية الأبدية ، المملوءة بالجمال والمحبة » .

ويقول ميخائيل نعيمه فى رثاء أمه ، بعنوان « قلوب الوالدات » :

« كل القلوب عجيب ورائع وغريب ، ولكن أعجبها وأروعها وأغربها من غير شك قلوب الوالدات ؛ فما إن يزحل ولد عن قلب والدة حتى تصبح الوالدة ولها قلبان وجسدان وحياتان . وتتعدد المواليد فإذا الوالدة ذات قلوب وأجساد وحيوات عدة ، فكأنها شجرة التين الهندى ، التى ما إن يتدلى غصن من أغصانها إلى الأرض فيلمس التراب حتى يتخذ له جذوراً ، وينمو شجرة مستقلة فى الظاهر بساقها وفروعها وأغصانها عن ساق أمها وفروعها وأغصانها ، أما فى الواقع فهى متصلة بها أوثق اتصال .

« . . . لهف قلبى على الوالدات ! فهنّ يعشن أعماراً عدة فى عمر واحد !

« إن الوالدات لسن الينابيع التى منها تتفجر الحياة ، ولكنهن الآنية المقدسة المعدة لاقتبال الحياة واحتضانها . . وللوالدات المجد فى أن يكنّ من الإنسانية طليعتها المباركة فى طريق نكران الذات .

« ألا رفقاً بالوالدات ، حتى اللواتى يظهرن للناس ولأولادهنّ كما لو كنّ غير صالحات . أفما كفاهنّ صلاحاً أن تختارهن الحياة آنية صالحة للحياة ؟ !

أىْ ، رأفةً ثم رأفة بقلوب الوالدات ! »

٢ – البنون

إذا كان البنون زينة الحياة الدنيا ، وسلوة الوالدين ومجلى سعادتهم ، فالشعر الذى يوحى به البنون إلى والديهم ليس سوى مجلى من مجالى الحب والحنان اللذين يحسهما الوالدون نحو أبنائهم ، والآمال التى يبنونها لمستقبلهم .

وإذا كانت الطفولة أعذب فترة فى الحياة ، والأطفال أجمل ما يمنح الحياة البهجة والحيوية والسعادة ، فإن الشعر الذى يستوحى الطفولة ومرحها وعبثها

وسذاجتها لابد أن يجيء حلواً مثلها ، لأنه شعر الإحساس الصادق ، والتجربة الحقيقية .

وفى شعر المهجر غير قليل من شعر الطفولة والأطفال ، وكله من الشعر الرفيع فى أحاسيسه ، الناعم فى صياغته ، والمبدع فى تصوراته وخيالاته ، سواء أكان فرحاً وغبطة ، أم ألماً وإشفاقاً . وفى ما يلى نستعرض طائفة من شعراء المهجر الذين نظموا الشعر فى أبنائهم . ونبدأ بالشاعر جورج صيدح ، صاحب « النوافل » و « نبضات » .

لجورج صيدح ابنة وحيدة اسمها جاكلين ، كانت سلوة حياة أبويها . وقد تزوجت وأنجبت له أحفاداً زادوا فى بهجة حياته . وفى صغرها اضطرت مرة إلى دخول المستشفى لتجرى لها عملية جراحية ، فكاد قلب أبيها يتمزق عليها ألماً وهى بين يدى الجراح يعمل فيها آلاته الحادة . فنظم قلقه وخشيته وألمه قصيدة من أروع ما تجود به العاطفة الصادقة الحارة ، فقال :

رفقاً بها يا مبضعَ الجـــرّاحِ ... شرّحتَ قلبَ الوالـد الملتـــاحِ
والله لو أطلقتُ روحى لارتمت ... تحت النضال تصدّها بجراحى
ماذا جنتْ وهى الفطيمةُ فى الرّبى ... حتى تسامَ خثارةَ الأقداحِ
بالأمس مدّتْ عنْقها من وكْنِها ... واليوم تشهدُ مديةَ الذبّـاحِ !
الياسمين الغضُّ فى أكمامـــهِ ... غُبن النَّضارة أخْذُه بالرّاحِ
أنا لا أخدّشه بغير نواظرى ... وبغـير شم عبـــيره الفوّاحِ
مالى أراهُ على الخِوان ممدَّداً ... وأكادُ ألثم أنملَ الجرّاحِ ؟
ويحى ! دفعتُ إلى المشارط فلْذةً ... كنت الضّنين بها على الأرباحِ
قالوا : غلوتَ بحبها ! فأجبتهم : ... ويل الشجىِّ من الخلىِّ اللاحى !
النوحُ إن يَثقُلْ على أسمـــاعكمْ ... صلّوا لأجل نجاتها وصداحى
هى فرحةٌ للوالدين وحيـدةٌ ... يتآسيـــان بهـا على الأتراحِ
إنّ الذى أشفى على خوض الدجى ... مثلى ، ليقدرُ قيمةَ المصباحِ
آمنتُ فى علم الطبيب ، وأنّ فى ... جرح الجسوم سلامةَ الأرواحِ
ربّاه ! سدّدْ كفَّه وســـلاحَه ... إنى طرحتُ على يديه سلاحى

وليس من السهل أن نعلّق بشىء على مثل هذا الشعر الذى ينطق كل بيت منه

بألف معنى جميل حار ، ملىء بالصدق ، وعمق الإحساس .

ولقد تزوجت وحيدة الشاعر ، وأنجبت طفلها الأول فدعاه « جورج » ، على اسمه ؛ ولما أتم الحول الأول نظم فيه قصيدة طويلة قال فيها :

نجـــواك نثرةُ حلْوى وقطـــرةٌ من زلالِ
يا فـــرحتى إذ تناغى على البساطِ حيالى
حـــتى أمطّيك ظهْرى فى غفلةٍ من عيـــالى
أحبـــو وأرهفُ سمْعي كاللصّ عنـــد انسلالِ
كأنّنى حـــزتُ كنْزاً مخبّـــأ فى رحـــالى
حملى له حطَّ عنّى حمْلَ السنين الثّقالِ
بنىَّ ، يا روحَ روحى ويا خيـــالَ خيالى
يا وصلةً بين أمسى وحاضِرى ومـــآلى
أنتَ الربيـــعُ المرجَّى لدوحـــةٍ فى انحلالِ
تـــزكو غـــداً فتزكى فضل الجذوعِ الأوالى
حوّطتُ باسْمِك إسْمى من عـاديات الزّوالِ
يا ربّ أطْلِقْ سراحى رأت عُيونى مثـــالى

أما الشاعر ندرة حداد فيحدثنا عن مشاعره الرقيقة وهو يرى طفليه يهجعان بعد أمسية أزعجا بها البيت والجيران بلهوهما الصاخب المرح ، فيقول :

والله مـــا مُلْكُ سليمـــانٍ قِدْماً ، وما فى الكون من مالِ
عندى بأشْهَى مع حـــرمانى من حسْن هذا المنظر الغـــالى

ثم ارتفع الشاعر بقلبه إلى خالقه ، ليناجيه بهذه الصلاة ، فيقول :

لم يبَـــقَ لى إلا الصَّـــغيران تعـــزية فى عمرىَ الآنى
إن عافنى فى الشيب خلاّنى كانا رجائى فى الملمّاتِ

* * *

فاجعَلْهما غصْنين ، إن أثمـــرا فليثمرا فى الكون ما ينفـــعُ

وليكتبا فى سِفْره أسْطـــرا تبقى مع الباقى الذى يُجْمَع

* * *

واجعلْهُما نـــوراً به أهتـــدى إن نفد الزيتُ وناسَ السّراجْ
وقـــوّة تحملنى فى غـــدى إن ضعف الجسْمُ وخاب العلاجْ

* * *

حتى إذا ما انصرمَتْ مدّتى وأطلقتْ نفسى مـــن الأسْر
حـــلاّ ملاكين على تربـــتى وأنْعَشـــا روحىَ فى القَـــبْر

إننا نلمس فى هذه القصيدة شيئاً من بساطة الصياغة الشعرية ، ولكننا لا نملك إلا الإحساس بجمال العاطفة التى يعبر عنها الشاعر ، ورقتها ، وبصدق الانفعال الذى يستوحى منه القول .

وهذا الشاعر إلياس فرحات يستقبل ابنته البكر « ليلى » بقصيدة يقول فيها :

هذى الرياضُ منابتُ الزّهْر تلك البحـــارُ مصادرُ الدر
ذاك الفضاءُ نجومُه تجرى

بالله يا بنتى – من أيها أنتِ ؟ فى أيهـــا كنتِ ؟
لا تحزنى لأبيك إن جَهِـــلا خلّى البكاءَ وحالنى الجذَالا
ما أنت من هذا التراب ، ولا تلك الميـــاه وذلك الجـلَد
بل أنت من روحى ومن جسَدى

وأما ابنته « سعاد » فإنه ما كاد يستقبلها قادمة إلى الحياة ، حتى ودّعها راحلة إلى الأبدية ، فقال حين رآها تفارق الحياة :

يهنيك نومُك يا سعادُ كأنه نومُ الرضيع على ذراع المُرْضع
يهنيك يا ولدى السكونُ محرّكاً بجلال هيبتـــه سواكنَ أدمعى
كم قبلةٍ تهفو إلى شفتىَّ من قلبى الحزين الواله المتفجّـع
حتى إذا وجدت سريرَك خاليـــاً رجعتْ فصارتْ جمرةً فى أضلعى

وتزوجت ابنته ليلى ، وجاءت مرة تزوره ومعها بناتها الصغيرات ، فملأن البيت بهجة وحبورا ؛ فلما عدن من عنده أحس بالوحشة لخلو بيته منهن ، فقال فى ذلك من قصيدة بعنوان « حفيداتى » :

نأى الأحبابُ عن بيتى فبيتى بعـدهُمْ قَفْرُ
وعينى من شخوصِهمُ إذا ما استيقظتْ صفْرُ
فـلا عـين تراعينى ولا يفترُّ لى ثغْـرُ

* * *

وفى دُنيـا النَّـوى وادٍ خيـالى فوقَهُ جسْرُ
أسيرُ عليـه يحدُونى فؤادٌ مـا له صـبْرُ
فألقاهنَّ فى وهْمى فيا وهْمى لك الشكرُ
وألثمهـنّ ظمآنـا فيحلو فى فمى المـرُّ
فراشاتٌ عـلى شيبى تحومُ وكلها طهْرُ

وهذا رياض المعلوف ، أخو الشاعرين فوزى وشفيق معلوف ، المقيم الآن فى لبنان ، يخاطب طفلتيه « نجوى – وحياة » خطاباً كله عذوبة ورقة ، فيقول فى مقطوعة قصيرة :

أعـزُّ عـلىَّ من المقلتيْن حيـاةٌ بعينٍ ونجوى بعَيْن
فإنّ الصّغارَ نعيمُ الحيـاة فحمداً لربّى عـلى نعمتَيْن
وأصبحتُ مثل فراش الرّياض يرفّ جناحى على وردتَيْن
أعـزُّ عـلىّ من المقلتيْن حيـاةٌ بعين ونجوى بعيْن

ولكن هذه المقطوعة القصيرة ألطف ما تكون حين كانت تلقيها الطفلتان أنفسهما بلثغة الطفولة البريئة ، التى تتحول فيها السين ثاء ، والراء لاما ، والجيم والزاى ذالا ، والقاف همزة ، فتلفظان البيت التالى هكذا :

أعـذّ علىّ من المؤلتـيْن حياةٌ بعين و (نذوى) بعَيْن

أما الشاعر زكى قنصل ، المقيم فى الأرجنتين ، فقد فجع بطفلته البكر « سعاد » وهى ابنة ثمانية أشهر فقط ، فنظم فيها ديواناً صغيراً من الشعر يحتوى على ثمانى قصائد ، تعبر كلها عن فجيعته بتلك الفلذة العزيزة . ويتذكر فيها سريرها وَدُماها ، ولهوها ، ومناغاتها الحلوة . ومن قصائده فيها قصيدة بعنوان « على ضريح سعاد » ، يقول فيها :

رفَّتْ رفيفَ الأقحوانة وانطفتْ فى عمْرِها

ماذا جنَتْ حتى تصيَّدَها الرَّدَى فى فجرها ؟
يا ربِّ لا تحبسْ فؤادى لحظةً عن ذكرِها
أنا قد عبدتُكَ بسمةً وضّاءةً فى ثغـرها
وشممتُ أنفاسَ الجنانِ شذيّةً فى شعرِها

* * *

أسعادُ ! قد ضحك الصّباحُ على الرَّوابى والوهادِ
قُومى نغنّ مع الطيور ونَعْدُ من وادٍ لوادِ
كذب النعىُّ وضاعَ دمعُ النائحينَ على سُعادَ
ما غبتِ عن عينى فكيفَ أغوصُ فى ثوب الحداد؟
إنى تحدّيتُ الرَّدَى وحملتُ شخصَك فى فؤادى

ومثل زكى قنصل كذلك جورج كعدى ، فقد فجع بفقد طفلته « ثريا » فنظم فيها عدداً من القصائد ، ثم جمعها فى كراسة صغيرة .

وقال الشاعر عقل الجرّ يصف « الطفل » بلسان أم — وهو نفسه لم يتزوج ولم يكن له أبناء :

أُعطِيتُه كالصّبح غُـرّتهُ ملكاً تقمّصَ صورة الولدِ
أزهـو بطلعتـه وأحسبُه ألكون جُمّع كله بيَدى
وأطـلّ منه على غدٍ لمعتْ آمالُه فى مفرقِ الأبَـدِ
تغفـو عيونُ الناس هانئةً وهنـاء عينى فيه بالسُّهُدِ
تهتاجُنى من فيـه زقزقـةٌ تزرى بصوت البلبل الغَرِدِ
ويهفّ نحوى منشباً يـدَهُ فى العين أو فى النّحر والعضُدِ
فأزفُّه قُبَـلى وأرهقُـهُ وأكادُ أرجعه إلى كَبدى
فكأنـنى وأنا أدغـدغُه طفلٌ ، وطفلى دمْيَةٌ بيَدى

ويتألم « الشاعر المدنى » قيصر سليم الخورى إذ يرى حرمان طفله فى العيد من الملابس الجديدة ، فيقول :

رأى بُنَىّ صغارَ الحى قد غنمُوا فى ليلة العيد أشياءً ، وما غنما
فجاء يسألُ مالاً لستُ أملـكه ولو أتى طالباً روحى لما حُرما

وَعَدْتُه وجفُونى حشْوُها أرقٌ ... وَعْـداً تعلَّقَ فى أجفانه حلُما
لمـا رأت أمـه حـالى وحالتـهُ ... مالتْ لناحية تذرى الدموعَ دما

ويقول فى قصيدة أخرى عنوانها « المشيب الجميل » فى أطفاله الثلاثة :

وثـلاثةٍ لمـا ضممتهمو إلى ... صدرى شفيتُ من الفؤاد غَليلا
يتسارعـونَ إلىّ حين أعودُ مـن ... سفرٍ قصيرٍ قـد رأوه طَـويلا
فتخالُنـا عند التعانق دوحـةً ... صغرى تريكَ نضـارةً وذبُولا

* * *

ما بالُ قلبى كلما أعطيتهم ... أضعافَ ما طلبوا أظلُّ بَخيلا !
وعدى لهم أرَبٌ ، فإن قصرت يدى ... عن مطلب فرحوا به تعليـلا
قبـلاتهمْ عند السؤال عطيـةٌ ... منهم تعيدُ السائل المسئولا
يا طالما أدنيتُ خـدى مغمضاً ... عينىّ أفتـحُ للسؤال سَبيلا
قد فرّجوا عنى الهموم وزحزحوا ... عن منكبى صخراً أصمَّ ثقيلا
لولا همو ما كانَ ضَعفى قـوّة ... والعسْرُ يسراً والمشيبُ جميـلا

* * *

وبعد فهذا قليل من كثير مما نظمه شعراء المهجر فى أبنائهم ، فى أفراحهم معهم وأحزانهم عليهم ، نكتفى منه بهذا المقدار لأن المجال لا يتسع لأكثر منه .